أ.سلطان بلغيث

جامعة تبسة

العلوم الاجتماعية في الجزائر بين استاتيكية التنظير وديناميكية الواقع الاجتماعي

تمهيد:

فكير في المجتمع قديم قدم البشرية،أما التنظير العلمي المجتمع فلا يتجاوز عمره170عام انطلاقا من اكتساب دراسة المجتمع عنوان العلم. ومادامت المعرفة العلمية هي ديدن العلوم جميعا، فإن الواقع باعتباره السياق الذي تحدث فيه الظواهر الاجتماعية ظل محل مدارسة من قبل الباحثين من أجل تحليله وفهمه وتفسيره، والإجابة على عديد الأسئلة التي ماانفك يفرزها الواقع الاجتماعي.

يثير موضوع التنظير في العلوم الإنسانية والاجتماعية في الفكر العربي المعاصر إشكالات نظرية وتطبيقية متعددة، بعضها يرتبط بأسئلة المعرفة العلمية في الثقافة العربية والمجتمع العربي، وكثير منها يتصل بنوعيات الممارسة العلمية كما تجري في الجامعات ومراكز البحث العلمية العربية.

فالعلوم الاجتماعية في العالم العربي التي مر عليها حينا من الزمن ظلت طيلة هذه الفترة تقريبا تستهلك ما تنتجه الآلة الأجنبية من مفاهيم وتنظيرات اجتماعية. بل وحتى التفسيرات وتوظيفها لفهم واقعنا الاجتماعي وتفسير شبكة العلاقات الاجتماعية القائمة فيه.

والسؤال المطروح في هذا المقام هو: هل يستطيع المبضع الجاهز في مجال الظواهر الإنسانية بناء معرفة علمية؟ وهل نحن عاجزون حتى الآن على هضم المنتج السوسيولوجي الوافد واستيعابه، لانجاز وثبة التجاوز والتأصيل في الحقل السوسيولوجي؟

مفاهيم:

النظرية: رؤية تجريدية تهدف إلى تقديم تفسيرات وتصورات هامة للحياة الاجتماعية من حيث نشأتها وتطورها وتغيرها أو من حيث علاقة كل جانب من هذه الحياة بغيره من الجوانب.

و تعد النظرية Theory عنصرًا هامًا في البحث العلمي، فهي نشاط ذهني وعملية فكرية تفيد الباحث في تفسير الظواهر المختلفة، ومن ثم فهي تقدم فهمًا علميًا لها. وتحاول النظرية السوسيولوجية كشف ا بادئ العامة التي تمكن الباحثين من فهم الواقع الاجتماعي فهمًا ومتطورًا. .

وهي نسق متسق من المفاهيم المستمدة من الدراسة الموضوعية لمعطيات الواقع الطبيعي أو المجتمعي أو الإنساني عامة.

التنظير: رؤية تفسيرية للواقع الموضوعي.وحتى لا يبقى هذا التنظير قابعا في التجريد الخالص ،لابد له من إطلالات على الواقع ، يستبصر من خلالها الكلي في الجزئي، والمجرد في الواقعي.

التأصيل: عملية بناءة وتعد بمثابة إعادة خلق أو إعادة تأسيس للنظرية ولها قيمتها العلمية والوظيفية.[1]. فالتأصيل هو إعادة قراءة نظرية الاجتماعية وإعادة تجديد ينابيعها المعرفية في ضوء المعطيات المستجدة التي أفرزتها التحولات الاجتماعية محليا و عالميا.

---

[1]- محمود قمبر، المرجع السابق، ص.154.

والتأصيل يرتبط بالقدرة على إضافة شيء جديد إلى تراث الإنسانية، والجديد لا يعني بالضرورة الإتيان بأمر غير مسبوق، وإنما قد يكون إعادة تأويل القديم، وتقديم رؤية جديدة من خلال إعادة التفكيك والتركيب والفهم المستجد، الذي يؤدي إلى التطوير والتأصيل.

التنظير السوسيولوجي في الجامعات العربية:بين الغياب والحضور

الهاجس الأكبر والتحدي الضخم الذي راهنت الدولة الوطنية بعد الاستقلال على النهوض به، هو تحقيق وثبة التقدم والخروج من شرنقة التخلف والتبعية للآخر؟ من أجل ذلك كُرست الجهود التنظيرية للبحث عن رؤية سوسيولوجية لتحقيق الفعل التنموي، غير أن هذا التنظير ظل في معظمه يدور في فلك التوجهات النظرية للمدارس الغربية الكبرى التي تبلورت خلال القرنين التاسع عشر والعشرين الماضيين، مما جعل أغلب النظريات الاجتماعية –إن لم نقل كلها- المدرسة في الجامعات العربية ذات مسحة غربية مرتبطة أشد الارتباط التاريخ الثقافي للمجتمعات الغربية ومعبرة عن خصوصياتها ومشكلاتها الفكرية. ذه النظريات تتعرض في مجدها إلى انتقادات حادة بالنظر لعدم قدرتها على استيعاب التغيرات التي يعج بها الواقع الاجتماعي الغربي إلى درجة جعلت بعض الباحثين يرون أن النظرية الاجتماعية ينبغي أن يُعاد توجيهها وتوسيع نطاقها بحيث تجعل اهتمامها بالعالم تأويليا محوريا وبحيث يحصر البحث التجريبي والتاريخي المقارن في نفس لاتجاه.[2].

أما في العالم العربي فإن هذه النظريات يتم تداولها على أنها حقائق ثابتة، وتوارثتها أجيال الدارسين دون تغيير أو فحص أو مراجعة. ودون مراعاة الفوارق بين المجتمعات المستهدفة، من حيث الشروط البنيوية، والخبرات التاريخية الخاصة، والعوائق المحلية أمام استيعاب وتبني النظريات والتفسيرات المستوردة من بيئات اجتماعية وثقافية مغايرة.

وعلى الرغم من أن عمر البحث في الإنسانيات بأساليب المنهج العلمي ما يزال في بدايته، وأن أعرق الجامعات العربية لا يتجاوز عمرها ثلاثة أرباع القرن الواحد، بل إن عمر أقسام العلوم الاجتماعية داخل هذه الجامعات لا يتعدى خمسة عقود من الزمن في أغلب الجامعات العربية. ويمثل غياب الإسهام النظري العربي في الإطار العالمي للعلوم الاجتماعية واحدة من أهم مشكلات العلوم الاجتماعية في العالم العربي، فاغلب النظريات المتداولة في الواقع العربي هي إفراز الفكر العلمي الغربي، في زمن أحوج ما تكون الساحة العربية فيه لبديل يتناول الواقع العربي بكل خصوصياته وتجلياته.علما أن هذه النظريات الكلاسيكية التي مازالت تتداول في تفسير التغيرات الحاصلة راهنا ،تعتبر وليدة الظروف التاريخية والأوضاع الطبقية التي نشأت في ظلها وقدمت تفسيراتها وتأويلاتها في إطار رؤيتها لعوامل وأبعاد التغير في المجتمع أو المحافظة على الأنظمة والأنساق التي ترى أهميتها.وقد اصطبغت هذه النظريات بتوجهات إيديولوجية، ولم تجعل م العالم مجالا لتحليلاتها، ولم تتسع مقولاتها لتفسير العلاقات العولمائية بين المجتمعات.[3].

---

[2]- تقرير التنمية البشرية،معهد التخطيط القومي،Undp،مصر،2001، ص.9-10.

[3]– محمود عرابي، تأثير العولمة على ثقافة الشباب،الدار الثقافية للنشر،القاهرة،2006، ص33.

ساؤل عن طبيعة الإنجازات التي تبلورت في هذا المجال ومدى مطابقتها للأسئلة التي تطرحها الأوضاع الإنسانية في الوطن العربي؟ ولاسيما إذا ما تعلق الأمر بالإنتاج السوسيولوجي الذي يقرأ مفردات الواقع العربي ويعاين مشكلاته... فنادرا ما يجد طالب المعرفة إنتاجا سوسيولوجيا عربيا يطفئ ظمأه لفهم الواقع العربي المعاصر بصورة منضبطة أو موضوعية أو شاملة أو حتى جزئية.[4].

ذلك أن البحث في الظواهر الإنسانية في العالم العربي لم ينشأ بالآليات والوسائل العلمية في العالم العربي، مثلما حصل في التاريخ الغربي بفعل عملية تاريخية ذاتية، موصولة بصيرورة في النظر إلى هذه الظواهر ضمن سياق تطور الأفكار والعلوم وتطور المجتمعات، قدر ما نشأ في سياق عملية تقليد أفرزتها متغيرات خارجية وافدة.[5].

ولذلك ظل الجهد الفكري في ميدان العلوم الاجتماعية في أطواره المختلفة يدور في حلقات متتابعة من رجمة والاقتباس والمحاكاة دون أن يتجاوز ذلك إلى مرحلة الفكر الذاتي في ضوء خصوصيات المجتمع العربي .وتركز اهتمام الباحثين والعلماء على قضايا قد تكون ذات أهمية في بلادها الأصلية ، بينما تفتقر إلى الأهمية في مجتمعاتنا الناقلة لها.[6].

فمنذ عقود من الزمن تتكرر نفس المحتويات المدرسة لأجيال متعاقبة من الطلبة ،دون انتباه إلى التغيرات المستحدثة التي يموج بها عالمنا المعاصر، وكأن هذا العلم خارج منطق التطور في الوقت الذي يتوجب عليه أن يكون أكثر العلوم ديناميكية في رؤيته للتحولات العاصفة التي تجتاح الواقع الاجتماعي بصورة مطردة ومستمرة.وعلى حد تعبير انطوني جيدنز فإن العلوم الاجتماعية مرت منذ السبعينات القرن الماضي بمرحلة مخاض أنجبت تحولا في الاهتمام بحيث أصبحت تعالج مسائل من قبيل ..الفاعلية والفهم والقصدية والبنية والمعنى.[7].

ومن المؤكد أن ظاهرة العولمة قد أبرزت عدم قدرة النظريات الاجتماعية التقليدية على التعامل مع هذه الظاهرة فيما يتعلق بصياغة تصورات ورؤى لتفسير قضايا وأبعاد وتأثيرات العولمة على مجتمعات العالم المختلفة أيا كان موقع هذه المجتمعات على سلم التقدم،ويؤكد روربرتسون على هذه الحقيقة ،حيث يذهب إلى أن علم الاجتماع مازال غير مؤهل للتعامل مع الأمور المجتمعية الدولية، ناهيك عن الأمور العالمية.[8].

---

[4]- Guerid.D,Société Algérienne et Sciences Humane,in Mouvement Social et Modarnité Hommage àsaid chikhi ,sous la direct de benguerna M.et djerbal DAlger,co-édit,Naqd-Sarp, 2001.

[5] - أحمد خليفة وآخرون، إشكالية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي، دار التنوير، 1984.

[6]- مروة محمود،التنظيمات الأكاديمية لعلم الاجتماع وأزمة الإبداع السوسيولوجي في مصر:دراسة تحليلية ميدانية في سوسيولوجيا التنظير،رسالة ماجستير،كلية الآداب،جامعة القاهرة،2003، ص.86-87.

[7]– سعيد توفيق، أزمة الإبداع في ثقافتنا المعاصرة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت،2007، ص112.

[8]– رونالد روبرتسون، العولمة، النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية،ترجمة أحمد محمود ونورا أمين،المجلس الأعلى للثقافة،القاهرة،1998، ص.230.

ولعل من آثار ذلك أن جهود البحث في العالم العربي لم تتمكن من نحت مفاهيمها السوسيولوجية المشتقة من مفردات الواقع الاجتماعي العربي بكل ما يكتنفه من مشكلات وملابسات.لأن المفهوم له حياته الخاصة، المعرفية والفكرية، التي تتغير في سياق المجال المعرفي الحاضن لها، وفي إطار المشكلات التي تطرحها أو التساؤلات التي تجيب عنها أو المركبات التي تنهض أو تقوم على صرحها.[9].

وإذا اتفقنا على أن الواقع الإجتماعي متغير في مضامين الأشكال ومكوناتها، فإنه من المنطقي أن تصبح المفاهيم متغيرة كذلك، فهي نسبية بالنظر إلى مقولات الزمان والمكان وحالة الاجتماع. ولذلك فقد شهد التاريخ الفكري لعلم الاجتماع ظهور مفاهيم جديدة واختفاء أخرى، وتحريك مفاهيم ثالثة لتحتوى على مضامين جديدة. كما شهد تفلت مضامين م مفاهيم قديمة لتسكن مفاهيم جديدة، وهى الظاهرة الفكرية التي يمكن أن نسميها "بحراك المفاهيم".[10].

فإذا كانت النظريات الغربية تشهد مفاهيمها باستمرار حالة من حراك المفاهيم، فمن باب أولى أن يحدث هذا الحراك في مفاهيم النظريات أثناء محاولة تطبيقها على الواقع الاجتماعي العربي نظرا لاختلافه عن الواقع الاجتماعي الذي نشأت فيه هذه النظريات. أضف إلى ذلك أن الواقع أصبح يتحرك بوتيرة متسارعة تفوق النظرية، مما جعل غالبية المتغيرات التي ادعى المنظرون أنها المسئولة عن تشكيل الحقيقة الاجتماعية، ومن ثم تفسيرها، أصبحت متغيرات تنتمى إلى الماضي، ومن ثم فقدت قدرتها التفسيرية وربما وجودها . ومالم تتم المسارعة لنجدة النظرية وإنعاشها بمنظومة مفاهيمية جديدة معبرة عن حيوية الواقع ونابعة من عمق تحولاته، فإن النظرية سوف يتجاوزها الواقع، مما يشل قدرتها على أن تكون نموذجا تفسيريا للواقع.

التنظير في العالم العربي: بين الاستيعاب والتجاوز:

المتأمل للكثير من المفاهيم على مستوى العلوم الاجتماعية والإنسانية على سبيل المثال لا الحصر يجد أنها تنتمي لماكينة الإنتاج المعرفي الغربي أو غيره من المناطق الجغرافية الأخرى مثل آسيا وأميركا اللاتينية. فالمفاهيم المرتبطة بنظريات التبعية والتنمية والعولمة وحوار-صراع الحضارات والحداثة وما بعد الحداثة وتحليل الخطاب كلها أو معظمها منتجات لم يسهم العالم العربي فيها بشيء وإن أعاد اجترارها بدرجات متفاوتة من الخطأ والصواب. وهذا أحد أهم مؤشرات الأزمة الحادة التي تنتاب العلوم الاجتماعية في العالم العربي ، متمثلة في التبعية النظرية للحقل المعرفي الغربي، وذلك على المستويين النظري والمنهجي، ومن مظاهر هذه التبعية التقليد والنسخ الأعمى لمناهج المعرفة الغربية وإعادة إنتاج فكرها، أو مجرد استهلاكه دون أدنى تساؤل أو مراجعة نقدية.[11].

وتثير مسألة استعارة النظريات مواقف متعددة تتراوح بين القبول والرفض والتوفيق بين الموقفين:

---

[9]– عمر كوش، أقلمة المفاهيم، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء(المغرب)،2002، ص.28.

[10] -Cohen, Morris & Earnest : An Introductions Logic and Scientific Method, Harcourt, Brace & World INC, New York, 1936, p. 225 .

[11]– فضيل دليو، علم اجتماع المعاصر، ثنائياته النظرية والمنهجية، مخبر علم اجتماع الاتصال، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر،2004، ص.20.

ففي حين لا يمانع تيار القبول من الاستعانة بالنظريات الغربية، مادام معيار القبول أو الرفض يجب ألا يؤسس على مجرد اختلاف ات والظروف التي أفرزت تلك النظريات عن بيئتنا العربية، وإنما على طبيعة القوى التي أفرزت النظرية وأهدافها وقدراتها التفسيرية، وعلى توجيه البحوث الواقعية، وعلى أساليب صدورها ومدى تمشي هذه الأساليب مع المنهج العلمي.[12] .

وفي مقابل هذا التوجه يقف تيار الرفض لمسألة الاستعانة بالنظريات الغربية،ويحشد لموقفه ذلك جملة من المبررات منها أن الانطلاق في دراسة المجتمع الغربي من التصورات النظرية الغربية لن يفيدنا في فهم واقع مجتمعنا من كافة جوانبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية..

ن هذين الموقفين المتناقضين يقف تيار توفيقي يحاول الجمع بين النقد والإبداع، فالاطلاع على الانجازات العلمية في بلدان الغرب المتقدم والانفتاح عليها ومتابعتها أمر مشروع، بل أنه مطلب أساسي، فالدراسة والتأهيل العلمي في جامعات العرب ليست امراً معيبا في ذاتها ولكن إذا كانت محصلة ذلك في النهاية هي الركون التام إلى الصياغات النظرية الغربية دون الوعي بضرورة التنظير إليها في سياقاتها الخاصة فإن ذلك يفضي إلى استمرار اغتراب العلم واستمرار عجزه عن التعامل مع الطبيعة النوعية للمجتمعات العربية عامة.[13] .

وإذا كانت السياقات العربية السياسية والاجتماعية تدفع باتجاه قمع التنظير والتضييق عليه، وتضيق ذرعا بالفكر الناقد، وتصادر الرؤية المغايرة، فإن المفكرين والدارسين أنفسهم يتحملون مسئولية كبيرة في تقليص التنظير وتحجيمه. ن الملاحظ ذلك القصور المعرفي المرتبط بالأجيال المعاصرة والتكاسل عن الاطلاع على التراث العربي في مجال تخصصاتهم ناهيك عن التراث العالمي المعاصر.

قد انخرط الجيل الأول من الباحثين المشتغلين بحقول العلوم الإنسانية المختلفة في علم الاجتماع وعلم النفس والاقتصاد، ومختلف الفرع التخصصية للعلوم المذكورة، انخرطوا في عمليات الإنجاز الساعي إلى تشخيص طبيعة الظواهر المدروسة، مع محاولات متعددة للتفسير والتأويل لم تبلغ درجة صياغة سؤال التأصيل، ولعلها اكتفت بما يمكن أن يطلق عليه التمهيد الفعلي لإمكانية صياغة هذا السؤال، وذلك بكم جملة من العوامل التي ظلت تتحكم في إنتاجها العلمي، ونذكر منها على وجه الخصوص نقص الإمكانيات والاعتمادات المخصصة للبحث العلمي، وعدم إدراك الفاعلين السياسيين لأهمية وجدوى المعرفة العلمية في مجال الدراسات الإنسانية.[14] .

مكن الانخراط المذكور من الاستئناس بآليات في المعالجة والمقاربة غير معهودة في الثقافة العربية المعاصرة، وساهم في انفتاح الثقافة العربية على آليات التجريب والاستنطاق والمسح والتوصيف، ثم التنظيم والبناء والترييض وصياغة النماذج المعرفية، وذلك رغم الهيمنة الكبيرة للمعارف التقليدية ومفاهيمها على الذهنية العامة في المجتمع، فتحولت هذه النواة المعرفية الجديدة إلى بؤرة ضوئية كاشفة داخل مجاهل الفكر العربي، وساهم الرواد المؤسسون لهذه البؤرة في نقل مناهج العلوم الإنسانية بواسطة الترجمة، وبواسطة التجريب على معطيات الواقع المحلي، مما ترتب عنه لاحقا إنتاج أسئلة متعددة تتعلق بحدود وجدوى وقيمة منتوجهم.[15] .

---

[12]- نبيل السمالوطي، أزمة علم الاجتماع في العالم العربي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية،1995،ص.69.

[13]- مروة محمود، المرجع السابق ،ص.88.

[14] – كمال عبد اللطيف، تأصيل العلوم الإنسانية في الفكر العربي المعاصر: الشروط المعرفية والتاريخية.

http://www.aljabriabed.net/n18_02kamal.htm.13/03/2011.8h50.

[15] - كمال عبد اللطيف، المرجع السابق.

والآن ألم يحن الوقت للانتقال من مرحلة استهلاك المنتوج الغربي إلى استيعاب هذا المنتج بما يمكننا من تكييفه مع معطياتنا الحضارية الخاصة، ليس نقد المنتوج الغربي بغرض رفضه، بل نقده وتحليله ووصفه في إطار منظومة القيم التي يعيش فيها مجتمعنا.

وعملية تجاوز التراث عملية مزدوجة تنطوي على فعلين مرتبطين ارتباطا وثيقا، وهما، تجاوز التراث بمعنى عملية تأويله التي تضعه موضع الفحص والمراجعة والنقد، وتجاوز التراث بمعنى ممارسة الفعل الإبداعي الذي تكمن ماهيته في خلق شيء جديد يتجاوز الموروث أو التقليد السائد.[16]. ولا شك أن حدوث الفعل الأول (ممارسة تأويل التراث) يعد شرطا ولازمة من لوازم حدوث الفعل الثاني (ممارسة الفعل الإبداعي) في عملية تجاوز التراث وتحقيق وثبة الفعل الإبداعي المتمرد على المألوف والسائد.

تأصيل التنظير الاجتماعي في العالم العربي:

التأصيل عملية بناءة وتعد بمثابة إعادة خلق أو إعادة تأسيس للنظرية ولها قيمتها العلمية والوظيفية.[17]. فالتأصيل هو إعادة قراءة النظرية عادة تجديد ينابيعها المعرفية في ضوء المعطيات المستجدة التي أفرزتها التحولات الاجتماعية محليا وعالميا.

بمعنى أن التأصيل لا ينحصر في خلق نظريات جديدة فحسب، بل يمكن أن يكون من خلال إعادة التفسيروالتكييف والتجديد، حسب الثقافة العلمية للباحث، وما يفرضه العلم من تطورات، وما يفرزه الواقع الاجتماعي من تحولات. لأن خرافة العلم الحيادي، قد انتهت – لاسيما في العلوم التي يتناول موضوعها دراسة المجتمعات البشرية- التي تكون في العادة وثيقة الصلة بالأطر المعرفية لكل مجتمع.

وقد كان لأبي النصر رؤية أشمل من ذلك حيث عرض لرؤية شاملة للتأصيل في المجتمعات النامية ككل لمواجهة الفكر الغربي بشتى صوره خاصة في مجال المعرفة الإنسانية للحفاظ على ذاتها الحضارية وتراثها وتاريخها وقيمها، بالاستفادة من تجارب دولية نجحت في هذا المجال كاليابان والهند .[18].

فالتأصيل نافذة تتيح تعدد التفسيرات التي تتكامل فيما بينها ويغني بعضها بعضا، وبغيابه تتشابه الكتابات وتتكرر نسخها في الموضوع الواحد، وتصبح كتابات ممسوحة الهوية،عقيمة لا تلد فكرا ولا تنتج علما ولا تجدد فهما.

إن التفكير فيما أشرنا إليه يندرج ضمن قناعة راسخة بجدوى هذا البحث، رغم مآزقه وإشكالاته النظرية والاختبارية. وهو يعد وسيلة من وسائل تطوير البحث في المستوى المعرفي، بما ينقله من عتبة النقل المقلد إلى عتبة التأسيس المؤصل والمبدع، أي عتبة ترسيخ دروس هذا البحث، مفاهيمه ومناهجه وآليات عمله في فضاء الثقافة العربية المعاصرة، وذلك باعتباره حاجة موضوعية لا تستدعيها فقط الرغبة في المعرفة، بل تتطلبها أولا وقبل كل شيء حاجتنا في الوطن العربي لتجاوز تأخرنا التاريخي الشامل.[19].

---

[16]– سعيد توفيق، أزمة الإبداع في ثقافتنا المعاصرة، المؤسسة الجامعية مجد، بيروت، 2007، ص.13.

[17]- محمود قمبر، المرجع السابق، ص.154.

[18]– أبو النصر، مدحت (2001). تأصيل العلوم – المفهوم والخطوات وعوامل النجاح. **مجلة شؤون اجتماعية**، العدد (70)، جمعية الاجتماعيين، الإمارات العربية المتحدة، ص.113–129.

[19]- كمال عبد اللطيف، مفاهيم ملتبسة في الفكر العربي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، 1992، ص54.

وهو مسعى بحاجة إلى ترسيخ، لاسيما وأن الكثير من الأبحاث الاجتماعية مازالت تتدارس المجتمع الجزائري من زاوية المقولات الغربية التي أنتجت لحقول اجتماعية مغايرة.

التأصيل يثري النظرية من خلال تفاعل وجهات النظر، وتكامل الرؤى، ولاشك أن التفاعل الإيجابي مع ثقافة العصر من خلال ات إبداع،وتبادل وتحويل،يؤدي بنا إلى تأصيل نظريات المعرفة،وبحافظ على خصوصيتنا التي نعتز بها في ثقافتنا العربية الإسلامية. [20].

ولعله من العوامل الهامة في ترقية البحث وتأصيل نظرياته ومنهجياته، وتدعيم أخلاقياته ،أن تكون وراءه لغة نقدية تكشف عن حدود الجودة والأصالة وما فيه من ايجابيات وسلبيات. [21].

فالنقد ضرورة لا غنى عنها في معرفة قدراتنا وانجازاتنا ووضعيتها في مسيرة الحركة التنظيرية العالمية، مما يجعلنا نتعلم التواضع ونؤصل إبداعاتنا بما يحقق لنا المساهمة والمشاركة في حركة الإنجاز العلمي في الميدان السوسيولوجي، ولما لا السبق والتجاوز في صياغة نظريات علمية تحسن قراءة الما بعد الثقافي والاجتماعي الكوني.

ومع التحولات الثقافية والفكرية والاجتماعية التي أصبحت تفرض نفسها على الساحة الإسلامية أصبح التفكير في تطوير مناهج العلوم أمرا ضروريا يفرضه الواقع الجديد، هذا الواقع الذي أصبح يعي ذاته ويعي موقعه من الصراع الحضاري. [22].

من أجل ذلك بات من الضروري تفعيل حركة التأصيل في العلوم الاجتماعية، بدل تعطيلها،لاسيما بعد أن أحقق التيار الفكري الانقطاعي في التأسيس لعلوم اجتماعية قادرة على قراءة مفردات الواقع الثقافي والحضاري لمجتمعاتنا؛ وهو ما يجعل من التأصيل كرؤية ومنهج محاولة جادة لإعادة القاطرة إلى السكة، وتقويم الانحراف والعقم الحاصل في مسيرة التفكير الاجتماعي العربي، من خلال العودة إلى الذات بغرض تحقيق فعل الاستمرارية التاريخية والحضارية، بعد حقبة من الانقطاع عن الجذور والاغتراب عن الذات. وهي رؤية فكرية لها مقوماتها النظرية الواضحة، لاسيما وأنها تستند إلى تراث فكري وحضاري عميق، وما يعزز قيام هذه الرؤية حالة الارتباك والاضطراب التي تنتاب منظومة التفكير العالمي. مما يؤهلها لتكون نموذجا مغايرا للنمط الحضاري المهيمن.

خاتمة:

تشهد العلوم الاجتماعية ولادة جديدة بمعنى أنها تشق طريقها نحو التخلي عن الأطر والنظريات و الأنماط والتفاسير وتتجه نحو التساؤل عن معارفها وتعمل على تطوير موضوعاتها وأدوات استدلالها وشروط إنتاجها فعلم الاجتماع الجديد يعمل على التحرر من النظريات الكبرى والأسماء الكبيرة، دوركهايم، فيبر، أوكست كونت، سان سيمون، كارل ماركس.

لا يعيبنا أن نتعلم من تجارب الآخرين...ولكن أن نتعلم شيء وأن ننقل هذه التجارب حرفيا ونطبقها آليا شيء آخر.

---

[20] ـ محمود قمبر، المرجع السابق، ص.157.

[21]ـ المرجع نفسه، ص.160.

[22]– محمد أمزيان، نقد مناهج العلوم الإنسانية وخطوات صياغة مناهج إسلامية للعلوم الإنسانية، في كتاب قضايا المنهجية في العلوم الإسلامية والاجتماعية،المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة،1996، ص.203.

إن التجارب حلول أبدعتها عقول أصحابها في بيئات لها ثقافاتها وحاجاتها وإمكاناتها وهي تجارب نجح بعضها وبدرجات، وليس ت معها قدرة سحرية تصنع بها المعجزات. ولكنها خاضعة لصيرورة التطوروالتعديل والتغيير للأحسن، وهذا ما يجدر أن نفعله معها.

إن زرع علم اجتماع في الجسم الاجتماعي العربي لم تؤت أكلها بعد، ونحن هنا أمام احتمالين إما أنها فشلت أو أنها لم توت ثمارها بعد، والسؤال المطروح في هذا المقام هو هل المدة المنقضية من عمر علم الاجتماع في العالم العربي غير كافية لإنضاج هذه البذور وإنتاج علم اجتماع نابع من صميم الحياة الاجتماعية العربية؟ وهل المخاض العسير الذي تشهده المنطقة العربية، كفيل بتحفيز ثقافة التساؤل حول ما يجري في واقعهم؟

إن مجتمعا يفتقد إلى ثقافة التساؤل وتذوي فيه ملكة النقد، وتخفت فيه ومضات التفكير المبدع لهو مجتمع أشبه بالميت-إن لم يكن قد مات بالفعل- فحينما يغيب النقد ويصادر الفكر الخلاق يشعر العقل بحالة من الدونية تجاه ما يجابهه من مشكلات، ويغلب عليه الميل إلى استجداء الحلول الجاهزة، ويصبح لقمة سائغة تتقاذفه الأفكار الوافدة، وهكذا يغتال العقل ويفترس المجتمع، ويزدهر الطغيان. وحين يستفيق العقل، ينتفض المجتمع، ويندحر الطغيان.